

واقع النص في الدرس العربي

د. سهل ليلى

جامعة محمد خيضر - بسكرة - (الجزائر)

الملخص :

تقوم الدراسات اللغوية الحديثة على النص الذي يعدّ ممثلاً شرعياً للغة، لأنّه أرض خصبة لذلك، ويسمح تحليله بالانفتاح على نصّ متكامل، متنسق ومتربط يحتكم إلى علاقات معيّنة بين المتتاليات الجمالية، وإلى آليات تصنع ترابطه الذي يستهوي القارئ، ويدعوه للولوج إلى عالمه العجيب المتناسق. فقد غدا النصّ مجالاً خصبا حيويًا، لذلك ظهرت مدارس لغوية معاصرة كانت أحدثها المدرسة النصّية، والتي كان اهتمامها منصّباً على الجملة بوصفها الوحدة اللغوية الكبرى، فتجاوزتها لتصل إلى وحدة أكبر تتمثّل في النصّ، لذلك سنتطرق في هذه الدراسة إلى واقع النصّ، من خلال التطرق إلى مفاهيمه المختلفة في الدرس العربي .

الكلمات المفتاحية: النصّ، العرب، الدرس، القدامى، المحدثين

The abstract :

The modern linguistic studies on the text which is the legitimate representative of the language, it's fertile ground, and allows analysis of openness on an integrated text, consistent and coherent relationships between governs total sequences, and mechanisms are made interdependent which impresses the reader, to access the scientist extraordinaire, harmonious. The text has become uistic schools were the most recent of 8fertile, so featured contemporary ling the school, which was of interest to the sentence as a linguistic unit, overtaken by up to a larger unit in text, so we will look at the reality of the text through various concepts addressed in the lesson.

Key words. Text, the Arabs ,the lesson, the old, modernist.

Résumé :

Les études linguistiques modernes sur le texte qui est le représentant légitime de la langue, parce que c'est un terrain fertile et permet l'analyse de l'ouverture à un texte coordonné, cohérent et régit les relations cohérentes entre les séquences totales, et les mécanismes interdépendants rendent alléchant lecteur, pour accéder à l'univers merveilleux de harmonieux. Il est devenu fertile texte dynamiquement, si les écoles de langue contemporaine est apparu la

plupart étaient des manuels scolaires, qui se concentraient sur l'unité linguistique comme une peine, dépassée en remontant à une plus grande unité dans le text. Nous allons donc regarder la réalité du texte par le biais de diverses notions abordées dans la leçon.

Mots clés : leçon , texte, arabes, ancienne , Moderniste

تمهيد :

لقد استعصى مصطلح النص على التعريف في الدرس العربي، إذ كثيراً ما تكاثفت الأسئلة في ماهيته وأقسامه وأغراضه، وتمايزت عن أشكال تواصلية أخرى. ومن بين الأسئلة الملحة، أي نص نعني؟ أهو الديني أم الفلسفي أم العلمي أم الأدبي أم اللساني؟ أهو النص المنطوق أم المكتوب أم التراثي؟ أم الحداثي؟ الشعري أم النثري؟⁽¹⁾. وبإزحام هذه المعاني وتشابكها كان من الضروري أن ننطلق من عمق التراث للبحث عن حدود هذا النسق اللغوي، وبخاصة أن هذا المصطلح سجّل حضوراً مركزياً في الذخيرة اللغوية العربية والمعرفية أيضاً، فقد عبّر عن مرجعية القوانين المحتكم إليها في الحياة العربية الإسلامية، ويبدو أن العرب الأوائل ميّزوا بين مستويين في النص، هما مستوى النظام ومستوى التوظيف، ولما كانت الرسالة الدينية نصية في شكلها، فإنها أسست لكيفية استثمار المقولات الدينية في الحياة الإنسانية، ثم وجهت بطريقة غير مباشرة الفكر العربي للنظر في الكون والوجود، بكل أبعاده النفسية والاجتماعية والحضارية والأدبية واللغوية. ولعل التوصيف الموضوعي لأنواع الخطاب العربي القديم هو الذي وجّه الأنظار إلى تأسيس المعرفة اللغوية الصوتية، والنحوية والبلاغية والمعجمية والتاريخية والإبداع بشتى أشكاله. وقد تمّ هذا التوصيف في دائرة اللفظ والمعنى، وربما هذا هو السبب الذي يجعلنا نقرّ مطمئنين أن الحضارة العربية نصية في مبدئها.⁽²⁾

1/ مفهوم النص:

أ/ لغة : تنوّعت الدلالات المعجمية لمادة (ن ص ص) في لسان العرب وبقية المعاجم العربية، وإن كانت في مجملها تدل على:

- **الرفع والإظهار:** «النصُ رَفْعُ الشَّيْءِ، نَصَّ الْحَدِيثَ يَنْصُهُ نَصًّا رَفَعَهُ، وَكُلُّ مَا أَظْهَرَ فَقَدْ نَصَّ»، ومنه: «نصّ المتاع نصّاً: جعل بعضه على بعض».⁽³⁾

- **الوضوح والثبات:** ويتصل هذا المعنى بالسابق، فإذا رُفِعَ الشيء تجلّى وبان، وقيل: «نصّ القرآن ونصّ السنة أي ما دلّ ظاهرُ لفظهما عليه من الأحكام»⁽⁴⁾. لوضوح دلالتهما وثبات أحكامهما، ومن ذلك قول «عمرو بن دينار: ما رأيْتُ رجلاً أنصَّ لِلْحَدِيثِ مِنَ الرَّهْري»⁽⁵⁾،

فهو ينقل الحديث كما هو دون تغيير أو تحويل. ومما يدل على الثبات كذلك النصنصة وهي «إثباتُ البعير رُكْبَتَيْهِ فِي الْأَرْضِ وَتَحَرُّكُهُ إِذَا هَمَّ بِالنُّهُوضِ»⁽⁶⁾.

- الاستقصاء والإحكام: يتجلى هذا المعنى في قول أبي عبيد: "النَّصُّ التَّحْرِيكُ حَتَّى تَسْتَخْرَجَ مِنَ النَّاقَةِ أَقْصَى سَيْرِهَا"⁽⁷⁾. ولن نباعد كثيرا عن معنى الإظهار والثبات لنستشف معنى الإحكام وعدم التفكك، فـ «نَصُّ الْأَمْرِ شِدَّتُهُ»⁽⁸⁾.

وإذا أمعنا النظر في المعاني السابقة، وجدنا النص ظاهرا جلياً من حيث كونه متحققا باللفظ أو الكتابة. والنص قبل أن يتشكل في صورة مكتوبة أو ذبذبات مسموعة كان أفكارا باطنية، مخبوءة في ذهن المتكلم غير واضحة بالنسبة للسامع، حتى إذا أراد المتكلم إبلاغ معنى معين رفعها من نطاق الكمون إلى نطاق التحقق، ومن الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل، فصارت الرسالة واضحة بالنسبة للمتلقي.

فعلى الرغم من أن كتب القدماء لم تتضمن تعريفا مقنعا للنص، إلا أن إشارات تؤكد أن فهمهم له لم يكن بعيدا كما هو متداول اليوم. فقد صرح القدماء أن القرآن الكريم نص، والسنة النبوية كذلك، مما يعني اتصافهما بكل ما يندرج تحت هذا المصطلح من خصائص أفادها المعنى اللغوي الذي ساقته المعاجم، وأوردناه فيما سبق ومن هذه الخصائص:

- ✓ الظهور والبيان.
- ✓ النظم والترتيب المقصود.
- ✓ الاستقصاء والشمول وتحقيقه للهدف الذي وضع من أجله.
- ✓ السلامة والاستقامة والاستواء حسب معايير معروفة للاستقامة ومتفق عليها.
- ✓ التعيين والدلالة على شيء ما.

نستخلص من قراءتنا لهذه المادة المعجمية أن النص يعني الرفع بنوعيه الحسي والتجريدي، وأقصى الشيء وغايته والاستقصاء والإظهار. وتفيد هذه المعاني جميعها أن النص هو ما يرتفع أو يظهر، إما كحدث كلامي من خلال الصوت المسموع، وإما كإنتاج خطي مرئي تظهره الكتابة⁽⁹⁾.

وبرى الدكتور "عمر أبو خرمة" في كتابه (نحو النص): "لو أمعنا النظر قليلا في المعنى المعجمي الذي قدمه اللسان، لوجدنا أمارات تفيد كثيرا في الوصول إلى مراد العربية بالنص"⁽¹⁰⁾.

يمكن أن نستخلص أن هذه المعاني تعود في المعاجم العربية اللغوية القديمة إلى جامع واحد هو الارتفاع، وهو أظهر مكونات الشيء وأقصاها⁽¹¹⁾، وهي بهذه المعاني كلها قريبة من معانيها الاصطلاحية، إذ يسهل أن نستنتج من المعاني اللغوية في الثقافة العربية أن النص كائن لغوي، يطلق على ما يظهر له المعنى في الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي، عندما يترجم إلى المكتوب. وهذا الشكل الصوتي يمثل آخر طور

يبلغه الكلام في توليد بنية النص الظاهرة التي قد تطول أو تقصر، وهو السمة المادية التي تلازم أي نص من النصوص اللغوية لاسيما تلك النصوص المكتوبة.

ب/ مفهوم النص اصطلاحاً :

على الرغم من أن النص القرآني أصبح بعد تدوينه القطب الذي دارت حوله أغلب الدراسات اللغوية وغير اللغوية (معجمية، نحوية، بلاغية، فلسفية، فقهية...)، إلا أن تلك الدراسات على تنوعها لم تقترب من المعاني الاصطلاحية إلا اقتراباً محتشماً بسيطاً كقولهم: "النص لا يحتمل إلا معنى واحداً أو لا يحتمل التأويل، ولا اجتهد مع النص". (12) بخلاف معنى النسيج الذي يمسّ جوهر النص. أضف إلى ذلك أن لفظ النص زاحمته مفاهيم أخرى كمفهوم اللفظ ومفهوم البيان ومفهوم النظم⁽¹³⁾ الذي كان أقربها إلى مفهوم النسيج النصي، إذ كثيراً ما كان "عبد القاهر الجرجاني" يشبّهه بالنسيج هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن النص القرآني على أهميته يرتبط عند عامة الناس بالجانب السمعي الشفوي المتصل بتحقيقه قراءة وترتيلاً وحفظاً أكثر من ارتباطه بالكتابة، مما يجعله أقرب إلى مفهوم الخطاب الذي تقترب معانيه اللغوية في الثقافة العربية اقتراباً كبيراً من معانيه الاصطلاحية، خلافاً للمعاني اللغوية للفظ النص.

وإذا كانت آراء النحاة - القدامى والمحدثين - قد تعددت حول تعريف الجملة، فإن النص قد تعددت تعريفاته أيضاً وتنوعت، بل وتداخلت إلى حد الغموض أحياناً أو التعقيد أحياناً أخرى، فبعض مكونات النص تعتمد على مكونات الجملة وتتابعها، وبعضها يضيف إلى تلك الجمل الترابط، وبعض يعتمد على التواصل النصي والسياق، وبعض يعتمد على الإنتاجية الأدبية أو فعل الكتابة، وبعض يعتمد على جملة المقاربات المختلفة والمواصفات التي تجعل الملفوظ نصاً، فيكون لدينا حصيلة كبرى من التعريفات التي تقرّبنا من ملامحه.

ويمكن أن يحدّد مفهوم النص في التراث اللساني العربي من خلال منظومة مفاهيمية متناسقة منسجمة، مثل الجملة والكلام، والبيان بأنواعه والخطاب والتبليغ، وإذا كان النحاة والبلاغيون العرب لم يستعملوا مصطلح "نص"، فلأن مفهومه كان مشغولاً بواحد من المصطلحات، وإذا كانوا لم يعبروا بكلمة "نص" صراحة مصطلحاً له المفهوم الموجود عندنا والمتعارف عليه بيننا، فإنه قد كان قائماً في صدورهم، متصوراً في أذهانهم مختلجاً في نفوسهم، متصلاً بخواطيرهم حادثاً به فكرهم، موجوداً فيهم بالقوة، وحاولوا إخراجهم إلى الفعل والممارسة، لما رأوا حاجة ثقافتهم إلى التأسيس والتوثيق والانفتاح على الثقافات الأخرى، وتبادل الأخذ والعطاء (14).

كما أن هناك اختلاف شديد في تعريف النص إلى حدّ التناقض أحياناً، والإبهام أحياناً أخرى (15)، ولا يوجد تعريف متفق عليه من الباحثين في اتجاهات علم النص بشكل مطلق. وجدير بالذكر أن الاختلاف في تعريف مصطلح "النص" ليس بدعاً في الدراسات اللغوية، بل في كثير من العلوم، خاصة في بداية نشأتها وهذا أمر طبيعي .

ويمكن السرّ في عدم استقرار مفاهيم النص في عدة أمور:

أولاً: التماس بين لسانيات النص وغيرها من العلوم، وإن كنا نرى هذا التماس الذي عدّ سبباً من أسباب عدم الاستقرار، ركناً أساسياً في الدراسة النصية، فالنص يصدر عن نفسية معينة وعن مجتمع، ومن ثمّ وجب ارتباطه بعلوم النفس والاجتماع والفلسفة والفيزياء والأدب... الخ.

ثانياً: تعدد معايير هذا التعريف، فهل هي معايير شكلية، أم معايير دلالية أم شكلية دلالية معاً؟ أم غيرها من المعايير.

ثالثاً: عدم اكتمال تطوير نحويات النص، لأن عدم الاكتمال يعني عدم اكتمال العلم، مع الإشارة إلى أن الكلمة الأخيرة في أي علم من العلوم أمر صعب الحسم فيه، ولكن نقول على وجه التقريب في الحسم النهائي بالكلمة الأخيرة⁽¹⁶⁾.

وإذا رجعنا إلى "الجرجاني" (ت471هـ) فإننا نجد صاحب فضل كبير في دراسة موضوعات تتعلق بلسانيات النص، فموضوعات الحذف والذكر والتقديم والتأخير والحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية، هي موضوعات مرتبطة بجودة النص وأثره في المتلقي. وتؤثر في تمايز النصوص بعضها عن بعض، ولا ترتبط بموضوع كيفية بناء النص من حيث هو نص، وقوانين إنشائه مباشرة، وإن كانت ذات أثر فاعل في تحديد مفهوم النص ذاته. ومع أن كثيراً من الدارسين رأوا في دراسة تلك القضايا في دلائل الإعجاز وعياً من "الجرجاني" بنحو النص⁽¹⁷⁾. فقد كان لإدراكه طبيعة علم النحو أثر بارز في خدمة نحو النص، كحديثه في الفصل والوصل الذي يعدّ نموذجاً بارزاً لما يجب أن يبحث فيه هذا العلم، وليس كل نظرية نحو النص ضمن فهم "الجرجاني" لعلم نحو النص بمصطلحه المعاصر إلا ما كان من إبراز لموضوع ظاهر من مواضيع هذا العلم، وربما لم يقدم كتاب الدلائل في مجمله، أكثر من نظرية جديدة لعلم النحو، وسيكون الدليل على صدق هذه الدعوى، ما قدّمه "الجرجاني" نفسه في الدلائل، حيث انطلق من أغراض المتكلم وأحوال الخطاب، وما يترتب على ذلك من كلام يتميز بخواص تركيبية وموضعية، تتلاءم مع المقامات التي يقال فيها، فننفذ إلى صميم الظاهرة النصية من خلال نظرية النظم، وهو توخي معاني النحو وأحكامه، وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله، "وهو أن ترتّب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها في الألفاظ في نطقك"⁽¹⁸⁾ قال: "واعلم أن ليس النظم (أي صناعة النص)، إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنّنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه... الخ"⁽¹⁹⁾.

يظهر جلياً أن "الجرجاني" يرى أن النص لا يتكون إلا حسب قوانين النحو ومناهجه. وهو هنا يدرك أن علم النحو ليس نحو الجملة فقط، إذ يرى أن نحو الجملة جزء يسير من

علم النحو، ويؤكد هذا الفهم ما أكمل به "الجرجاني" كلمته فقال: " فينظر في الخبر... وفي الشرط والجزاء... وفي الحال... فيعرف لكل ذلك مواضعه، ويجيء به حيث ينبغي له" (20). ونقرأ نصاً آخر "لعبد القاهر" مفاده "أن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظم والنظم والتأليف التأليف والنسيج والنسيج والصياغة الصياغة، ثم يعظم الفعل وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره... وحتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع... ولا يكفي أن تقولوا إنه خصوصية في كيفية النظم... حتى تصفو تلك الخصوصية، كما يذكر لك عمل من تستوصفه عمل الديباج المنقش، ما تعلم به وجه دقة الصيغة أو يعمل بين يديك، حتى ترى عياناً كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء، وما يذهب منها طولاً وما يذهب عرضاً، وبما يبدأ وبما يثنى، وبما يثالث، وتبصر بالحساب الدقيق، ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم منه مكان الحذق وموضع الأستاذية" (21).

نستنتج من هذا النص الصورة التي عقدها "عبد القاهر" للتشبيه بين النظم والنسيج، فكما تنتظم الخيوط في آلة النسيج، فكذلك الشأن بالنسبة للألفاظ تنتظم في النص، وكما تذهب الخيوط طولاً وعرضاً، ويتكون المنسوج من تلاقي بعضها ببعض، تتعالق الألفاظ وتتقاطع أفقياً وعمودياً، حيث يتكون النص من محور التركيب ومحور الاختيار والاستبدال. وقد سُمي "عبد القاهر" هذا التقاطع بين المحورين بمعاقد الشبكة.

استطاع الجرجاني "سبر أغوار الظاهرة اللغوية أو أغوار الظاهرة النصية باهتمامه الواضح بأحوالها، وتفكيكها إلى مختلف مكوناتها. وبناءً على هذا يمكننا أن نذهب إلى أن نظرية النظم في الحقيقة نظرية في الخطاب أو النص، وإن دلائل الإعجاز كتاب في تحليل النصوص والخطابات وظواهر التبليغ اللغوي" (22).

كما عرّف "الشريف الجرجاني" (ت816) النص بقوله: "النص ما ازداد وضوحاً على المعنى الظاهر لمعنى في نفس المتكلم، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى، كما يقال أحسنوا إلى فلان الذي يفرح بفرحي ويغتم بغمي" (23)، وقال: "وأنه ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل ما لا يحتمل التأويل" (24).

الناظر إلى التعريف الأول يلاحظ مستويين:

يتعلق المستوى الأول بالمعنى الظاهر، ويتعلق المستوى الثاني بزيادة الوضوح على المعنى الظاهر، وتلك الزيادة اقتضاها معنى في نفس المتكلم يودّ تبليغه إلى المخاطب. ومن الشروط الأساسية اللازم توافرها في إفهام المخاطب شرط الوضوح ليفهم المعنى المقصود بدقة دون حاجة إلى تأويل، لأنّ النص كما أشار "الشريف الجرجاني" في تعريف ثانٍ هو ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، وقيل ما لا يحتمل التأويل، وهذا يعني أن مفهوم النص عنده ليس هو المفهوم نفسه بالصورة التي هو عليها في ثقافتنا الحالية، لأن له معنى واحداً، ولا يحتمل التأويل كما جاء في التعريفات. (25) ولكنّه في الثقافة المعاصرة يكون بحسب نوع

المعرفة التي هو منها ويعبر عنها، فقد يكون متعددا إذا كانت المعرفة أدبية مثلا، ومن ثم يقبل التأويل وتتعدد القراءة، وقد لا يقبل التعدد، إذا كان ينتمي إلى المعرفة العلمية الصارمة الدقيقة.⁽²⁶⁾

غير أن "الشريف الجرجاني" يعرف المصطلح الظاهر بقوله: "الظاهر هو اسم الكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة، ويكون محتملا للتأويل والتخصيص".⁽²⁷⁾ فقد تحدث صاحب التعريفات هنا عن المعنى الظاهر، وهو الذي يحتمل التأويل والتخصيص في معناه، ولعل ذلك يرتبط بمفهوم البيان ومستوياته عنده، فقد عرف البيان قائلا: "هو عبارة عن إظهار المتكلم المراد للسامع، والبيان هو النطق الفصيح المعرب المظهر عما في الضمير"⁽²⁸⁾، وهو أيضا إظهار المعنى وإيضاح ما كان مستورا قبله، وقيل هو حد الإخراج من حد الإشكال، فكأن البيان هنا يساوي الكلام الظاهر المراد للسامع بالنطق الفصيح والإعراب عن المستور وإبانته.⁽²⁹⁾

ويمكن أن يحدد النص من خلال التفريق بين مستويين في دراسة اللغة: مستوى البنية، ومستوى الخطاب الذي يعد الكلام حدثا إعلاميا يتطلب عناصر كالمتكلم والسامع أو المخاطب، والمعلومات التي يعرفها عن الخطاب والمقام الذي يحدث فيه كل ذلك. فيمكن أن يحدد مفهوم النص في التراث اللساني العربي من خلال منظومة مفاهيمية متناسقة منسجمة مثل الجملة والكلام والاتساع في الكلام والبيان بأنواعه والخطاب والتبليغ.³⁰

ويحمل العلماء العرب القدامى من الوعي المتعلق بدراسة النصوص، ما يجعلهم من المؤسسين الحقيقيين للدراسة النصية كما هي عليه الآن، فيما يسمى بنحو النص أو لسانيات النص أو تحليل الخطاب، وبخاصة ما تعلق بمحاور الإحالة الكلامية، وبناء النصوص ودلالاتها على مستوى العلامات اللغوية وأركان الجملة، وآليات التخاطب ووظائف اللغة، وما تعلق بدراستهم لضوابط الربط الفكري والانسجام المتعلق بالتشكيل اللغوي في مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية، والجانب الإعلامي في النص والقصد والمقام، وكلها عناصر ذات أهمية في الدراسات النصية في عصرنا، إذ من خلالها تتكوّن النصانية.³¹

والنص مقولة مركزية في بناء الحضارة العربية الإسلامية، التي توصف بأنها حضارة النص، بمعنى أن القرآن الكريم يعدّ نصا محوريا فيها، وليس معنى ذلك أن النص بمفرده هو الذي أنشأ الحضارة، إن النص أيا ما كان لا ينشئ حضارة، ولا يقيم علوما وثقافة، إن الذي أنشأ الحضارة وأقام الثقافة جدل الإنسان مع الواقع من جهة، وحواره مع النص من جهة أخرى. وللقرآن في حضارتنا دور ثقافي لا يمكن تجاهله في تشكيل ملامح هذه الحضارة وفي تحديد طبيعتها علومها.

وبناء على هذا يمكن النظر إلى مسيرة العرب التاريخية في مختلف أبنيتها وتحولاتها، أي النظر إلى القرآن الكريم باعتباره فضاء دلاليا، وإلى اللغة العربية باعتبارها المؤسسة التي انتظمت فيها نشاطات العقل العربي، وهذا النظر هو المفضي حقا إلى الوقوف على نمط

تفكير القوم ، وطريقة اجتماعهم وطبائع سياستهم، وإذا كانت الحضارة الغربية قد أطلقت ما يسمّى بالأعجوبة اليونانية التي قفزت بالفكر من المستوى الخرافي إلى المستوى العقلي، فإنّ الأعجوبة اللغوية هي التي صنعت الحضارة العربية الإسلامية.

ولقد توهّم أغلب دارسي النص من الباحثين العرب المعاصرين أن أصل معنى النص في الثقافة العربية قائم على ما به يظهر المعنى، أي الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى مكتوب⁽³²⁾. وتوصّل آخرون إلى أن النص بمفهومه الاصطلاحي عند العرب يختلف تماما عن مفهومه في العالم الغربي، إذ هو عندهم- في الغرب- نسيج من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز حدود الجملة بالمعنى النحوي للإفادة⁽³³⁾، بينما هو عند العرب لا يتجاوز دلالاته المركزية الأساسية للدال (نص)، وهي الظهور والانكشاف⁽³⁴⁾. فلا علاقة له عندهم بالتمييز بين المكتوب والملفوظ من جهة، ولا علاقة له بالجملة وما فوقها من جهة ثانية، إذ قد يكون النص جملة أو أكثر، وكذلك لا علاقة له بكيفية تركيب الجملة أو مجموعة الجمل من جهة ثالثة، بل كلّ علاقته بالوضوح المضموني، فما كان واضحا فإنه نص، وما لم يكن فليس كذلك⁽³⁵⁾، وأن مفهوم النص عند العرب لا ينصرف إلى معنى الوضوح والانكشاف كما قدروا . كما يمكن تركيز مميزات النص بالنقاط الآتية هي: الظهور والثبات وعلو المصدر ، والتركيب والترتيب .

فيقول "صبيح إبراهيم الفقي": إنّ هذه المفاهيم لا تخرج عن أحد المعايير الآتية⁽³⁶⁾:

- ✓ كون النص منطوقا أو مكتوبا أو كليهما.
- ✓ مراعاة الجانب الدلالي.
- ✓ مراعاة التحديد الحجمي (طول النص).
- ✓ مراعاة الجانب التداولي.
- ✓ مراعاة جانب السياق وهو متعلق بالمعيار السابق.
- ✓ مراعاة جانب التماسك وهو أهم المعايير التي يقوم عليها التحليل النصي.
- ✓ مراعاة الجانب الوظيفي للنص.
- ✓ مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي.
- ✓ الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية مثل الكفاءة والأداء وغيرهما.
- ✓ إبراز كونه مفيدا.

وتعد هذه المعايير سمات النص الكامل، إن فقدت سمة من هذه السمات، يمكن أن نطلق عليه نصا ناقصا، ولذا يمكن أن نعدّها شروطا ينبغي توافرها حتى يمكن أن نطلق عليه مصطلح نص كامل. ويمكننا التعرّض لبعض من مفاهيم مصطلح "النص" حتى نتمكن من اختيار مفهوم يتلاءم مع طبيعة العلم بصفة عامة. فهل يمكننا الإجابة عن السؤال الآتي: ما مدى استقرار مفهوم النص؟.

إن حرص علماء اللغة على هذا الأمر جعلهم يؤكّدون التعريفات التالية للنص باعتباره الموضوع الرئيس في التحليل النحوي، معتمدين على المكونات والعناصر التي يتألف منها، أي من خلال مفهومه وتراكيبه وترابطه⁽³⁷⁾. إذ يشكل مفهوم النص أحد تجليات هذه المحاولات، لهذا فإن كلمة "نص" تتحوّل من المصطلح النظري إلى ما تشير إليه بشكل غير مباشر في الاستعمال اليومي، حيث تدل على النصوص اللغوية المكتوبة أو المطبوعة، فمن المفترض أن توجد أبنية نصية ذات طابع شمولي، هي التي تسمّى أبنية كبرى، وهي ذات صبغة دلالية، لأن البنية الكبرى للنص هي تمثيل تجريدي للدلالة الشاملة للنص⁽³⁸⁾، فمفهومه هو محاولة لوصف كل الممارسات الإنسانية، في جانبها التواصلية والمعرفية، وتعتبر الدليل المادي على النشاط الفكري.

ويطرح "محمد مفتاح" السؤال الآتي: ولكن ما هو النص؟ ثم يجيب قائلاً: "أهم ضابط للنص هو الانسجام وهو يضمّ عدة عناصر، وفي هذا المفهوم خلاف، ويمكن أن نتكلم عن مفهوم الاتساق ومفهوم التنضيد، فمفهوم التنضيد هو المرحلة الأولى أي العلاقة بين الجمل، وواو العطف وفاء السببية إلى غير ذلك من ارتباط الكلام ببعضه ببعض وتراصه"⁽³⁹⁾. فالنص عبارة عن متتالية من الجمل بينها مجموعة من العلاقات. ويربط "محمد مفتاح" خاصتي النظم والانسجام بنظرية اللغة عند "جون أوستين" عندما يتكلم عن الأفعال الكلامية، أي أن النص يعتبر حدثاً كلامياً، والحديث في المفهوم الأرسطي غير قابل للتكرار، أو إعادة الإنتاج.

ويقدم لنا الدكتور "محمد مفتاح" مجموعة من التعريفات المتعلقة بالنص، فهو مدوّنة كلامية تتألف من كلام لا من أشياء أخرى غير الكلام. وهو حدث: بمعنى أنه يقع في زمان ومكان محدّدين لا يعيد نفسه مثله مثل الحدث التاريخي.

تواصل: بمعنى أنه يهدف إلى إيصال معلومات ونقل خبرات وتجارب مختلفة إلى المتلقين.

ومغلق: أي له نقطة بداية ونقطة نهاية.

وتوالي: أي أنه سليل أحداث تاريخية، ونفسانية ولغوية، وتنبتق منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له⁽⁴⁰⁾.

ومن خلال هذه التعريفات جميعها خلص الدكتور "محمد مفتاح" إلى تركيب التعريف الآتي: "النص هو مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة"⁽⁴¹⁾.

الملاحظ أن هذا التعريف قد حاول الإحاطة بكل الجوانب المتعلقة بالنص الاجتماعية والتاريخية والنفسانية واللسانية، ثم إنه عدّ النص مدونة حدث كلامي، أي أنه يتعلق بالكتابة. واللافت للنظر أن "محمد مفتاح" يؤكّد أن النص مدونة كلامية وحدث زمكاني

تواصل تفاعلي مغلق في سمته الكتابية، وتوالدي وهو جمع صريح بين النص والخطاب وكلاهما يركز على وظائف التواصل.

أما "سعد مصلوح" فإن النص عنده "ليس إلا سلسلة من الجمل كل منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع للجمل أو لنماذج الجمل الداخلة في تشكيله"⁽⁴²⁾، فقد فقدت الجمل داخل هذا التعريف خاصية الاتصال أو خاصية ارتباطها بسياق خطابي. علاوة على ذلك فإن النص يمكن أن يجيء على صورة كلمة واحدة أو جملة واحدة أو مجموعة من الأجزاء أو خليط من البنيات السطحية⁽⁴³⁾. مما يؤكد أن نحو النص لا يتناول النص على أنه وحدات أكبر من الجمل أو جمل متوالية في سياق، وتلك الفائدة للجمل التي يحسن السكوت عليها - كما أشار الدكتور "سعد مصلوح" - إنما تصلح في نحو الجملة، لأن النص وحدة كلية مترابطة الأجزاء، فالجمل يتبع بعضها بعضا وفقا لنظام سديد، بحيث تسهم كل جملة في فهم الجملة التي تليها فهما معقولا، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الجمل السابقة عليها فهما أفضل⁽⁴⁴⁾. وعلى هذا تكون استقلالية معنى الجمل في لسانيات النص غير قائمة، فالمعنى يتحدد من خلال النص لا من خلال الجملة، ومن هنا ترتبط في النص الأجزاء السابقة باللاحقة، فيمكن أن تفسر جملة سابقة جملة لاحقة والعكس، مما يؤدي إلى القول بكلية النص. ولهذا يشير الدكتور "محمد عبد اللطيف حماسة" إلى أن النص لا يصبح نصا إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزا معيناً فيها جديدة محكمة مضمفورة من المفردات، وهذه الجديدة المضمفورة تؤلف سياقاً خاصاً بالنص نفسه يبيث في المرسلات اللغوية كلها، فينبغي إذن أن يكون لكل نص هدف وبناء محكم وسياق خاص، وعلى هذا فإن الفكرة القائلة بإمكان تحليل سلسلة لغوية - جملة مثلاً - تحليلاً كاملاً دون مراعاة للسياق قد أصبحت في السنين الأخيرة محل شك كبير⁽⁴⁵⁾.

ومن هنا وجدنا نواة الجملة يعتمدون على اعتبارات ضمنية ذات صلة وثيقة بالسياق والخطاب والتواصل عند إصدار أحكامهم على الجملة. وإذن لا نستطيع تناول النص من خلال وصفه بأنه ذو وحدات كبرى أو جمل متوالية، إلا إذا وجدت خاصيته الأولى وهي كونه وارداً في الاتصال⁽⁴⁶⁾ أي كان حجم النص، كلمة أم جملة أو شبه جملة... الخ.

يقول "الأزهر الزناد": "النص نسيج من الكلمات يتربط بعضها ببعض وهذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد، ما نطلق عليه مصطلح نص"⁽⁴⁷⁾. وهكذا يهتم التعريف بالربط اهتماماً كبيراً دون إشارة صريحة إلى الكتابة أو النطق وإن كان فيه ميل إلى الملفوظ. كما يقول "صلاح فضل": "علينا أن نبني مفهوم النص من جملة المقاربات التي قدمت له في البحوث البنيوية والسيميولوجية الحديثة، دون الاكتفاء بالتحديدات اللغوية المباشرة، لأنها تقتصر على مراعاة مستوى واحد للخطاب، هو السطح اللغوي بكيونته الدلالية. فالنص ليس مجرد لغة، وليس مجرد اتصال وليس مجرد كتابة،

وليس تتابعا لجمل مترابطة، تراعى فيه الظروف الخارجية أحداثا وزمانا ومكانا، إنه يتكون من كل ذلك وأكثر".⁽⁴⁸⁾

ومن التعريفات الجامعة للنص ذلك الذي نقله كل من الدكتور "سعد مصلوح" والدكتور "سعيد بحيري" على أنه حدث تواصل يُلزم لكونه نصا أن يستوفي له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويَزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير، وهي السبك والحبك والقصد والقبول أو المقبولية والإخبارية، أو الإعلام والمقامية والتناص.

الخاتمة :

من خلال ما سبق، نلاحظ أن مفاهيم النص في الدرس العربي قد اختلفت باختلاف التوجّهات المعرفية والنظرية والمنهجية، واختلاف تصوّرات ومنطلقات كل باحث، فلا نجد للنص تعريفا يعرف به عدد من الباحثين في اتجاهات لسانيات النص بشكل مطلق، لأنّها اعتبرت فرعاً علمياً متداخلاً الاختصاصات من جهة، كما اعتبرت علماً يركّز على النصوص في ذاتها وعلى أشكالها وقواعدها، ووظائفها وتأثيراتها المتباينة من جهة أخرى، إنّها تعريفات تميل كلها إلى خلق حالة منسجمة من النظام والتشاكل والتماثل بين مختلف المستويات الصوتية والصرفية، والنحوية والدلالية للنص.

الهوامش :

(1) ينظر: الحبيب شبيل، من النص إلى سلطة التأويل، ندوات جامعة منوبة، مجلد ٨، تونس، 1992، ص 448.

(2) ينظر: منذر عياشي، اللسانيات والدلالة والكلمة، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط 1، 1996، ص 15.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن ص ص) دار صادر، بيروت-لبنان، ط 1، 1997، 196/6.

(4) المصدر نفسه، ص 197.

(5) المصدر نفسه، ص 196.

(6) المصدر نفسه، ص ن.

(7) المصدر السابق، ص ن.

(8) المصدر نفسه، ص ن.

(9) ينظر: بشير إبرير، مفهوم النص في التراث اللساني العربي، مجلة جامعة دمشق، م 23، ع 1، 2007، ص 85.

(10) عمر أبو خرمة، نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2004، ص 25.

(11) ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص 12.

(12) محمد الصغير بناني، مفهوم النص عند المنظرين القدامى، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ع 12، ديسمبر، 1997، ص 40.

(13) ينظر: المرجع نفسه، ص 42.

(14) ينظر: بشير إبرير، مفهوم النص في التراث اللساني العربي، ص 26.

- (15) ينظر: أحمد مختار عمر، المصطلح الألسني العربي و ضبط المنهجية، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع3، 1989، ص 500.
- (16) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء، القاهرة، ط1، 2000، ص27.
- (17) ينظر: عمر أبو خرمة، نحو النص، ص 43.
- (18) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص405.
- (19) المصدر نفسه، ص94-95.
- (20) المصدر نفسه، ص 95.
- (21) المصدر نفسه، ص ن.
- (22) ينظر: بشير إبرير، مفهوم النص في التراث اللساني العربي، ص115.
- (23) علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، القاهرة، ط2، ص310.
- (24) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (25) ينظر: بشير إبرير، مرجع سابق، ص116.
- (26) ينظر: المرجع نفسه، ص116.
- (27) الشريف الجرجاني، مصدر سابق، ص147.
- (28) المصدر نفسه، ص39.
- (29) ينظر: بشير إبرير، مرجع سابق، ص117.
- (30) ينظر: المرجع نفسه، ص35.
- (31) بشير إبرير، المرجع نفسه، ص36.
- (32) ينظر: الأزهر الزناد، نسيج النص، ص12.
- (33) ينظر: عمر أبو خرمة، مرجع سابق، ص 24.
- (34) ينظر: المرجع نفسه، ص ن.
- (35) ينظر: المرجع نفسه، ص 25.
- (36) المرجع نفسه، ص29.
- (37) ينظر: فاضل ثامر، اللغة الثانية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1994، ص 45.
- (38) ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، دار الكتاب اللبناني المصري، بيروت / القاهرة، 2004، ص 265.
- (39) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص، دار التنوير، للطباعة و النشر، بيروت، ط1985، ص1، ص118.
- (40) ينظر: المرجع نفسه، ص119-120.
- (41) المرجع نفسه، ص 120.
- (42) سعد مصلوح، من نحو الجملة إلى نحو النص، ضمن كتاب الأستاذ عبد السلام هارون معلما ومؤلفا، ومحققا، مجموعة بحوث مهداة إلى الأستاذ عبد السلام هارون في ذكراه الثانية (تحرير: وداعة طه النجم وعبد بدوي)، جامعة الكويت - كلية الآداب، 1989م، ص407.
- (43) ينظر: روبرت دو بوجراند، النص و الخطاب و الإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، مصر، ط1998، ص1، ص64.
- (44) ينظر: محمد العبد، اللغة و الإبداع الأدبي، دار الفكر للدراسات و النشر، القاهرة، 1997، ص36.
- (45) محمد عبد اللطيف حماسة، منهج في التحليل النصي للقصيدة، مجلة فصول، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، صيف 1996، ص108.
- (46) ينظر: روبرت دو بوجراند، النص و الخطاب والإجراء، ص 64.
- (47) الأزهر الزناد، نسيج النص، ص 26.
- (48) صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، ص 266.